تراث

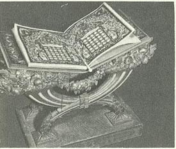

الفردوس المفقـود

لعل الفن الأندلسي المغربي من أعرق الفنون التي خلفتها العصور الوسطى . فمنذ القرن الثاني لهجري وقف عبد الرحمن الداخل مؤسس جامع قرطبة مشدوهًا معجبًا أمام مآثر الرومان لرائعة التي لقيها حين مر بالبلاد الأسبانية، فحاول أن يثبت في هذا المسجد ما راعه في الفن لجديد الذي ما لبث أن تطعم بالعناصر الطريفة الواردة من قادة اليونان، أو عن طريق العلماء والفنانين البيزنطيين. وهذا الفن الذي نشأ عام ٧٨٦ م — كما يقول طيراس — مازال يعيش ضمن الحرف والمهن في كبريات الحواضر المغربية (١) . فهو فن منبثق من حضارة واحدة ولدت في سبانيا وترعرت في الحواضر الافريقية، ولذا فهو وليد المدنية الأندلسية بقدر ما هو منبعث من عطيات الإسلام ..

الفن الأندلسي

بقلم الاستاذ : عبدالعزيز بن عبدالله

وقد أصدر الأمير الأموي عبد الرحمن الأول أمره بالشروع في بناء جامع قرطبة عام ١٧٠ هـ ، غير أن المنية عاجلته بعد سنتين فاستأنف **ولده هشام** هذا المشروع الضخم الذي لم يتم على شاكلته الحالية إلا بعد قرنين ونصف قرن ، ولكن المعالم الأولى التي خطها الأمير عبد الرحمن ظلت سائدة في التوسيعات المتوالية ، بحيث يمكن القول : بأن فنًا جديدًا انبثق في الغرب منذ عام ١٧٠ هـ **(أي ٧٨٦ ميلادية)** مستمداً تنميقاته وموادّه المرمرية وسواريه من بقايا الرومان ، ولكن رسومه مقتبسة من جامع دمشق وجامع بغداد والمسجد الأقصى.

ويُشكل هذا المسجد الآن مربعًا (طوله ١٨٠ مترا وعرضه ١٣٠ مترا) ثلثا أروقته للصلاة والثلث الباقي صحن ، وهو محاط بسور مسنن مدعم الجوانب ، فتحت في أضلاعه أبواب رائعة ، أغلق اليوم معظمها لوقوعها في أجنحة هذا المعبد الكبير الذي أصبح كنيسة ، وقد أسس الجامع على حافة الطريق المؤدية إلى قنطرة⁽٢⁾ الوادي الكبير قبالة القصر الملكي ، حيث لم تتسع مساحته تدريجيًا إلا نحو الجنوب والشرق.

وكان هذا المسجد كنيسة أول الأمر ، فحذا الأمير حذو الخليفة عمر بن الخطاب في الاقتسام ، وجرى في قرطبة ما جرى بالنسبة لكنيسة القديس جان بدمشق ، حيث اقتطع المسلمون نصف الكنيسة وتركوا الباقي للمسيحيين ، إلا أن رحاب الجامع الجديد ضاقت بعد أن أصبحت قرطبة عاصمة الخلافة الأموية في الغرب الإسلامي ، فقرر عبد الرحمن الأول بعد نصف قرن اقتناء النصف الآخر.

وقد ورد في (منهاج الفكر) : ان قنطرة قرطبة إحدى أعاجيب الدنيا ، بنيت زمن عمر بن عبد العزيز على يد عبد الرحمن الغافقي وطولها ٨٠٠ باع وعرضها ٢٠ باعًا وارتفاعها ٦٠ ذراعًا وعدد حناياها ١٨ حنية وعدد أبراجها ١٩ (نفح الطيب — المجلد الأول — القسم الأول طبعة ليد عام ١٨٥٥ م ، ص ٣١٤.

ونقل المقرى عن صاحب المغرب عن **ابن بشكوال أن الحاكم المستنصر** استحضر العلماء للمشورة في تحريف قبلة جامع قرطبة إلى نحو المشرق حسبما فعله والده الناصر في قبلة جامع الزهراء ، فقال له الفقيه أبو إبراهيم : إنه قد صلى إلى هذه القبلة خيار هذه الأمة فأخذ الخليفة برأيه (النفح ج ١ ص ٣٦٩).

وقد صرف الأمير من غنائم **(ناربونة)** مائة ألف مثقال، ثم زاد نجله هشام الأول سقائف للنساء وحوضًا للوضوء ومنارة، ويظهر أن البناء توقف في عهد الحكم الأول واستوقف عام ٢١٨ هـ في أيام عبد الرحمن الثاني؛فأقيمت تسع بلاطات جديدة مدعمة بثمانين سارية في ظرف ١٥ عامًا، ومن سنة ٢٣٤ هـ إلى منتصف القرن الرابع تم نقش وترخيم طرز المسجد وبناء المقصورة ومستودع لأموال الأحباس وتجديد الحوض والسقائف ، وأقيم ساباط بين القصر والجامع ، أما عبد الرحمن الناصر فقد اهتم بالمنشآت العسكرية والمدنية أكثر مما اعتنى بالمؤسسات الدينية، ومع ذلك فقد صرف على الجامع نحو ربع ما أنفقه على قصر الزهراء (المغرب جـ٢ ص٣٤٤) حيث هدم مثلاً منارة هشام الأول وأقام مكانها صومعة جميلة.

وقد كان **للحكم الثاني** اهتمام خاص بالجامع حتى أشرف بنفسه على رسم تصميم التوسيع بحضور فقهاء ومهندسين وبنى بلاطات ومحرابًا جديدًا وأقام قبيا في البلاط (٣) المركزي والبلاط الجانبي قبالة المحراب مع تطريزها بالمرمر المنحوت والفسيفساء، وهو الذي «جلب الفسيفساء عام ٣٥٤ هـ من ملك الروم اقتداء بالوليد في بناء مسجد دمشق» حيث أوفد رسلا إلى إمبراطور بيزنطة **(نيسفور فوكاس)** فرجع الوفد بالصانع ومعه من الفسيفساء ٣٢٠ قنطارًا هدية» فرتب جملة من المماليك لتعلم الصناعة، فأبدعوا وأربوا على الصانع الذي صدر راجعًا عند الاستغناء عنه (٤).

وفي عام ٣٥٦ هـ أجرى الخليفة إلى سقايات الجامع ماء عذبًا من عين بجبل قرطبة «خرق له الأرض وأجراه في قناة من حجر متقنة البناء محكمة الهندسة أودع جوفها أنابيب الرصاص».

وقد هدم منبر الجامع عام ١٥٧٢م (٥) ولكن الجامع احتفظ منذ تسعة قرون بروائه وثرائه ووميض نقوشه ومناعة هيكله (٦).وفي عام ٣٢٩ هـ جرى الماء من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة وعلى الحنايا المعقودة إلى بركة عليها أسد بديع الصنعة من الذهب الابريز، وعيناه جوهرتان لهما وميض، يجوز هذا الماء إلى عجز الأسد فيمجة في البركة وتسقى من عُجاجه جنان القصر (النفح جـ١ ص٣٧١).

أما استعمال وسائل **(علم الحيل)** للنقل فقد ذكر ابن بشكوال **(النفح جـ١ ص٣٦٥)** أن الحاكم المستنصر أجرى الماء من سفح جبل قرطبة إلى سقايات اتخذت بأبواب المسجد بجهاته الثلاث، وهي عبارة عن ثلاث جوابي من حياض الرخام استقطعها بمقطع **(المنستير)** بسفح جبل

قرطبة واحتفرها الرخامون بمناقيرهم حتى استوت في صورها البديعة، وحملت كل واحدة منها «فوق عجلة اتخذت من ضخام خشب البلوط على فُلك موثقة بالحديد محفوفة بالحبال، قرن لجرها سبعون دابة من أشد الدواب، وقد أفاض مؤرخو الإسلام في وصف الجامع الأموي، فنقل **ابن عذارى** عن الرازي (المغرب جـ٢ ص٣٤٢ — ٣٤٣) أنه لما عمرت قرطبة ونزلها أمراء العرب بجيوشهم ضاق المسجد وجعلوا يعلقون منه سقائف، فلما دخل عبد الرحمن بن معاوية اشترى من أعاجم قرطبة بقية الكنيسة وأباح لهم بناء كنائسهم المهدمة وقت الفتح فأتم في عام ١٧٠ هـ بناء الجامع الذي كمل بلاطه واشتملت أسواره في عام واحد، وزاد ابنه صومعة ارتفاعها ٤٠ ذراعًا وبنى سقائف للنساء، ثم أضاف **عبد الرحمن بن الحكم** عام ٢٣٤ هـ زيادة طولها ٥٠ ذراعًا وعرضها ١٥٠ وعدد سواريها ٨٠. وأمر ولده محمد بإتقان طرز الجامع وتنميق نقوشه وإقامة المقصورة، ثم زاد المنذر بيت المال في الجامع وجدد السقاية والسقائف، وزاد أخوه الأمير عبد الله ساباطًا معقودًا على حنايا يتصل بالمقصورة، وذكر ابن سعيد نقلاً عن ابن بشكوال أن طول الجامع من القبلة إلى الجوف ٣٣٠ ذراعًا، والصحن المكشوف عنه ٨٠ ذراعًا، وعرضه من الغرب إلى الشرق ٢٥٠ ذراعًا، وعدد أبهائه عند اكتمالها أيام المنصور بن أبي عامر ١٩ وعدد الأبواب ٢١. والمنبر مؤلف من أكارم الخشب ما بين أبنوس وصندل ونبع وبقم **(نوع من الخشب يصلح للطلاء الأحمر)** وهو مركب من ٣٦٠٠٠ وَصْل قام كل واحد منها بسبعة دراهم فضة وسمرت بمسامير الذهب والفضة وفي بعضها نفيس الأحجار (النفح جـ ١ ص ٣٦٢). وقد شاع في جامع قرطبة نحو ٣٦٠ طاقًا على عدد أيام السنة، وأن الشمس تدخل كل يوم من طاق إلى أن يتم الدور ثم تعود، إلا أنه لم يقف على ذلك في كلام المؤرخين (نفح الطيب طبعة ليد ١٨٥٥ جـ١ ص ٣٢٠).

وأكد الادريسي في نزهة المشتاق (الجزء المقتبس من النزهة والمطبوع في ليدن سنة ١٨٦٤ م ص ٢٠٨) أنه ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقًا، وتحدث عن سماوات السقف فأكد أنها من عيدان الصنوبر مسطحة فيها ضروب الصنائع المنشأة من الضروب المسدسة والفص والدوائر والمداهن، كل سماء مكثف بما فيه من صنائع لا يشبه بعضها بعضًا، قد أحكم ترتيبها وأبدع تلوينها «فأنواع الحمرة الزنجفرية والبياض الاسفيذاجي والزرقة اللازوردية والزرقون الباروقي والخضرة الزنجارية والتكحيل النقسي» **(النقس هو المداد)**، ولكل عمود رأس رخام وقاعدة رخام وعقد بين العمود والعمود على أعلى الرأس قسي غريبة فوقها قسي آخر على عمد من الحجر المنجور

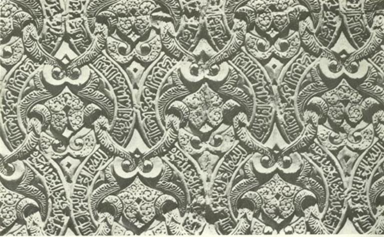

زخارف جصية تحت رواق قاعة السفراء بقصر الحمراء

«وركبت عليها نتواءات مستديرة بينها ضروب صناعات الفص، وتحت كل سماء منها إزار خشب كتبت فيه آيات القرآن، ومحرابها من الفسيفساء المذهب الملون، على وجهه سبع قسى قائمة على عمد، والقسى مزججة، وعلى الكل كتابان بين بحرين من الفسيفساء المذهب في أرض الزجاج اللازوردي وتحتها كتابان كذلك وعلى وجه المحراب أنواع من التزيين والنقش وفي عضادتي المحراب أعمدة اثنان أخضران وآخران زرزوريان وعلى رأس المحراب خصة رخام واحدة مشبوكة محفورة منمقة، وعلى يمين المحراب المنبر الذي ليس بمعمور الارض مثله صناعة، خشبُه أبنوس وبقس **(نوع من الشجر دائم الاخضرار)** وعود المجمر، وعن يمينها باب يفضي إلى القصر بين حائطي الجامع في ساباط متصل له ثمانية أبواب، وللجامع عشرون بابًا مصفحة بصفائح النحاس وكواكب النحاس.

ولاحظ (المقري) في محل آخر أن عدد الأعمدة **١٢٩٣** من الرخام وأن (باب المقصورة من الذهب وكذلك جرار المحراب وما يليه، اجرى فيه الذهب على الفسيفساء، وثريات المقصورة فضة محضة، وارتفاع الصومعة التي بناها عبد الرحمن بن محمد ٧٣ ذراعاً إلى أعلى القبة المفتحة التي يستدير بها المؤذن، وفي رأس هذه القبة تفافيح اثنتان من ذهب ابريز، وواحدة فضة وتحت كل واحدة سوسنة هندست بأبدع الصنعة، ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزج (نفح الطيب جـ ١ ص ٣٦٠)(٧).

نقل عن بعض المؤرخين أن قرطبة كانت تتكون من خمس مدن. يتلو بعضها بعضا. وبين المدينة والمدينة سور عظيم وحصن حاجز، وكل مدينة مستقلة بنفسها، وفيها ما يكفي أهلها من الحمامات والأسواق والصناعات (النفح جـ ١ ص ٣٦٧).

أما مدينة الزهراء فقد بُدئ في بنائها أيام الناصر أول سنة **٣٢٥** هـ وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ستآلاف صخرة سوى التبليط في الأسس، وجلب إليها الرخام من قرطاج وكان فيها من السواري **٤٣١٣** جلب من أفريقية **١٠١٣** وأهدى إليه ملك الروم **١٤٠** والباقي من رخام الأندلس.

والحوض المنقوش جلبه ربيع الأسقف من القسطنطينية. وكان عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعًا بالدر النفيس. وبلغ عدد الدور داخل الزهراء أربعمائة دار، بينما كانت عدة الدور داخل قرطبة ١٣٠٠٠ دار و٣٠٠٠[٨] مسجد و٢٨ ربضا، منها مدينتان «الزهراء والزاهرة»، وأما اليتيمة التي كانت في المجلس البديع فإنها من تحف قيصر اليوناني صاحب القسطنطينية أهداها للناصر (**المغرب جـ٢ ٣٤٥**).

وقد جلب الناصر حسب رواية المقري رخام الزهراء الأبيض من المرية والمجزع من رية والوردي والأخضر من أفريقية والحوض المنقوش من الشام، وقيل من القسطنطينية، وفيه نقوش وتماثيل وبنى فيها قصر الخلافة وسمكه من الذهب والرخام الغليظ، وفي وسطه اليتيمة المهداة من (ليون) ملك القسطنطينية، وقرامد هذا القصر من الذهب والفضة، وفي وسط هذا المجلس صهريج مملوء بالزئبق، وفي كل جانب منه أبواب انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي. فإذا أراد الأمير أن يفزع أحدًا من أهل مجلسه أمر بتحريك الزئبق فيظهر فيه كلمعان البرق من النور فيخيل للناظر أن المجلس قد طار مادام الزئبق يتحرك، وقد قارن المقرى الزهراء بالقصر الذي شاده ملك طليطلة **المأمون بن ذي النون** بها حيث صنع في وسطه بحيرة وفي وسطها قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطًا بها ويتصل بعضه ببعض، فكانت قبة الزجاج في غلالة من ماء سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجرى. والمأمون قاعد فيها لا يمسه الماء وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر عجيب (**نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٧**).

وقد اشتملت الزهراء على ٤٠٠٠ سارية و١٥٠٠٠ باب وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه وقد وقع الشروع في بناء الزهراء عام ٣٢٥ هـ، واستعملت كل يوم ستة آلاف من الصخر المنحوت المعدل عدا الصخر المصرف في التبليط (النفح جـ ١ ص ٣٧٣) وكان عدد السواري المجلوبة من أفرقية ١٠١٣ سارية.

وذكر صاحب المطمح أن المنذر بن سعيد أنكر على الناصر إسرافه في البناء، لأنه اتخذ لسطح القبيبة التي كانت مائلة على الصرح الممرد المشهور شأنه بقصر الزهراء قراميد ذهب وفضة أنفق عليها مالاً جسيماً، وقرمد سقفها صفرًا فاقعة إلى بيضاء ناصعة تسلب الأبصار بأشعة نورها (ص ٣٧٧).

وقد لاحظ طيراس⁽⁹⁾ أن أساليب النقش في مدينة الزهراء مقتبسة من اليونان والبيزنطيين في حين أن محراب قرطبة⁽¹⁰⁾ شبيه بباب خزانة مسجد سيدي عقبة، ومعلوم أنه في الوقت الذي وسع فيه الحكم الجامع الأموي؛ كانت قد مرت أزيد من مائة وعشرين سنة على اقامة مسجد القيروان الذي كان يعتبر إذ ذاك أوسع وأجمل مسجد في الغرب الإسلامي، ويلاحظ كذلك التأثير العراقي العباسي في مؤسسات قرطبة؛ كالقسى المفلوقة أو المفصصة على غرار ورق الأشجار، وكذلك في نقش السقوف الهندسي والقباب المنمقة في شكل عروق وأضلاع.

أما الرسوم الزهرية فالظاهر أنها من ابتكار الأندلسيين⁽¹¹⁾، وتتجلى التقاليد الأسبانية الصرف في رءوس الأعمدة المرمرية التي توجد بقاياها خارج قرطبة في الكتبية بمراكش وفي مسجد أشبيلية وفي المتاحف. وقد نحت الرخامون القرطبيون عددًا من أجمل هذه العمد في العصور الوسطى.

وتظهر المجالس الثانوية للفن الأموي في القلاع والأسوار (مدينة الزهراء وطليطلة) ومعلوم أن خلفاء بني أمية كانوا من كبار بناة الحصون، ولعل مبانيهم العسكرية تفوق في ضخامتها ما أسسوه من مساجد وقصور.

وقد استمر الطابع الأموي العام في أيام حجابة المنصور حيث زاد ابن أبي عامر بشرقي الجامع بلاطات تمتد طولها من أول المسجد إلى آخره، وقصد من هذه الزيادة المبالغة في الانفاق والوثاقة دون الزخرفة (المغرب لابن عذارى جـ ٢ ص ٤٢٩) وبلغ عدد السوارى ١٤١٧، وعدد

الثريات ٢٨٠ وعدد خدام الجامع ١٥٩ شخصًا وعدد القومة ٣٠٠ (النفح جـ١ ص ٣٦٢ نقلاً عن ابن شكوال).

وفي عام ٣٦٨ أمر المنصور ببناء الزاهرة بطرف البلد على نهر قرطبة ، فتمت في عامين فنزلها بخاصته واتخذ فيها الدواوين وأقام خلالها المنازل وجليلات القصور والأسواق فاتصلت أرباضها بأرباض قرطبة (النفح جـ ص ٣٨٠).

وتتسم النقوش العامرية بالطابع النباتي غير أن الرموز الحيوانية اتخذت مكانة جلى في فن النحوت المرمرية، وتوجد جفنتان من المرمر، إحداهما بمتحف مدريد والأخرى بمدرسة ابن يوسف بمراكش، تحمل اسم عبد الملك نجل المنصور، ومن جملة صور الحيوانات المنقوشة في هذا المرمر النسور والعقبان والظباء والأسود والفهود والطيور، وهذا يدل على أن الاستمداد من الطبيعة لم يكن خاصًا بالنقوش الخزفية أو العاجية، وقد خلف لنا الأندلس الأموي مجموعة من التحف العاجية تعتبر من أجمل ما يوجد في العالم(١٢) وما زالت **(تغزوت)** بشمال المغرب تصنع إلى الآن نماذج رائعة من هذه العلب والصناديق والأغشية العاجية ، ولعل الفن الأموي يستمد هذه البدائع من الفنيين العباسي والفاطمي ، ويمكن القول بأنه إذا كان الأثر البيزنطي جليًا في مدينة الزهراء وإذا كان التأثير العباسي قد بدأ يظهر في الصنائع أيام الحكم الثاني فانه استقى نقوشه الخزفية وصوره العاجية وقسما من نقوشه الهندسية من العراق ولكنه أضفى عليها طابعه الخاص.

وهكذا ظل الفن الأندلسي من القرن الثاني إلى القرن الرابع الهجري موصولاً بالأسر الأموية المالكة وبعاصمة قرطبة، ثم انتشر في باقي ربوع الأندلس وحدود قشتالة؛ فاستعملت الأساليب المعمارية والنقوش القرطبية في مساجد كبريات المدن وقصورها وقلاعها ، وبعد سقوط الخلافة الأموية والحجابة العامرية تمزقت وحدة الأندلس ونشأت مصانع في مدن لم يكن لها سابق نشاط . وفي عهد ملوك الطوائف غرست البلاطات الإقليمية ووجد جذور الفن الأندلسي في المدن الصغرى حيث عاش طوال قرون ثم مالبث الغزو المرابطى الأندلسي أن فتح باب أفريقيا الشمالية في وجه الفن الاندلسي الذي سادت معالمه في المدن المغربية ، غير أنه لم يبق شيء الآن من مؤسسات ملوك الطوائف باستثناء القصور الجعفرية التي أقامها بنو هود في سرقسطة(١٣) والتي تدل على مدى المجهود الذي بذله النقاشون في هذا العصر **(تزايد النقوش الزهرية في شكل دقيق وظهور القسى المتقطعة واتساع الأشكال الهندسية)**.

وقد عرف المرابطون كيف يقتبسون من الفن الأندلسي، وينقلون إلى المغرب بدائع هذا الفن، ويعتبر محراب تلمسان وروائع القرويين أجمل ما أهداه المرابطون إلى الأفارقة، وإذا كان المرابطون قد شجعوا انتشار الفنون الأندلسية دون مساس بروحها، فإن الموحدين تمكنوا من إضفاء طابع خاص على مجموعها، ولعل ذلك راجع إلى أن ملك المرابطين لم يدم طويلاً وأن دولتهم استؤصلت في عنفوانها، ومع ذلك فقد مهدوا الطريق للموحدين وفتحوا مدن أفريقيا على مصاريعها في وجه الفن الأندلسي. ذلك لأن ظهور دولة الموحدين غيرت الظروف التي عاش فيها الفن الأندلسي، فاتسع نطاق هذا الفن وانفسح مجاله مع تبلور وسائله واتساق مظاهر كماله. وإذا كان عبد المؤمن قد اتجه وبخاصة إلى إقامة مؤسسات بالمغرب (تازة ومراكش) فإن الأندلس احتلت المكانة الأولى في عهد أبي يعقوب الذي جدد أسوار اشبيلية، وأقام قصبة انخسفت إليها أنوار قصور بني عياد، وبنى أكبر مسجد في الأندلس⁽١٤⁾ ضاهى به جامع قرطبة وكتبية مراكش التي بناها والده كما نافس قصور القصبة بمراكش.

ثم جاء **المنصور فأتم جامع أشبيلية ومنارته العجيبة ومعماريات القصبة بمراكش وبنى رباط الفتح (قرب قصبة الودايا التي هي من مخلفات جده) وشرع في بناء جامع حسان**، ثم واصل ولده نشاط الأسرة المعماري، فأسس أسوارًا جديدة بفاس ووسع جامع الأندلس، ولكن هزيمة الموحدين بالأندلس فتحت أبواب أسبانيا في وجه الصليب، على أن الهندسة المعمارية العسكرية الموحدية لم تتطور في العدوتين إلا في ميدان النقش حيث استعيض عن الحجر المنجور وعن الرخام بمزيج من الملاط (الطين الذي تطلى به الجدران)⁽١٥⁾ والرمل والماء وهو الأسلوب الاقتصادي السريع في البناء، مما أثر تأثيرًا سيئًا في مناعة الحصون وفي قيمتها الاستراتيجية، غير أن استمرار الخطر المسيحى في الأندلس أمد الموحدين أنفسهم إلى نوع من العناية بالهندسة العسكرية، وواصل بنو نصر جهودهم في تجديد الأساليب العتيقة بالاستعداد من الأجهزة المسيحية.

ويمكن القول بأن الطابع العام في المعماريات الموحدية هو الفخامة والأصالة مع مهارة المهندسين في فن التشكيلات والتصويرات، ولذلك اتسم الفن الاندلسي المغربي بأعظم وأروع مما اتسمت به الفنون الأخرى.

وفي خصوص الفن الشرقي نلاحظ تقارب الأساليب المغربية الأندلسية مع المناهج الفاطمية سواء في المظاهر الهندسية أم النقوش (بالرغم من استعمال الآجر في المغرب والحجر والعقود والقباب المحدودبة في مصر)، وقد تباعدت طرائق التزيين المصرية السورية عن الاتجاهات العراقية لتقترب من المنازع المغربية ففي الكتبية ومسجد الحكم الفاطمي بالقاهرة مثلاً توجد حجرية وأقواس مسندة بأعمدة من الآجر ونقوش على الجبس وتوريقات زهرية.

وقد استطاع الفن الأندلسي في عهد الموحدين الاستمداد من مصر عن طريق (بني زيرى) ولكن غزو الأعراب الهلاليين قلص من هذا التبادل الفني بين الشرق والغرب الإسلامي أيام الأيوبيين والمماليك، بحيث ظل الفن الأندلسي منعزلاً يتطور بسرعة خارقة في إطار مُقفل تبلورت أشكاله ومعالمه، فلم يضف إليه المرينيون ولا الغرناطيون اكتشافات جديدة؛ وإنما هي تلوينات طريفة في إطار عتيق زادتها جموداً حركة الغزو المسيحي للأندلس.

وقد تأثر الأسبان المسيحيون الذين عاشوا بين ظهراني المسلمين بالأندلس بالفن العربي الذي ظهرت بعض معالمه في بناء الكنائس (ابهاء أشبه بمحاريب — قسى — قباب مورقة) كما احتفظ المدجنون(١٦) بصنائعهم واساليبهم الفنية، ولكن الدولة لم تستخدمهم إلا في المؤسسات البسيطة، بينما استعمل الأسبان الواردون من الشمال في بناء القصور والمعابد الضخمة بالإضافة إلى عملة من الشمال أو من فرنسا ثم من الفلاندر وألمانيا، وبذلك يرى البعض أن الفن المسيحي في أسبانيا فن أجنبي مستورد من الخارج، ويلاحظ وجود عنصرين في فن المدجنين الفن الاندلسي القديم والفن المجلوب. ففي طياته يتسم الفن المقتبس بالطابع الأموي بينما يصطبغ فن المدجنين في اراغون — وهو أبرز أنواع هذا الفن — بالطابع الموحدي لا سيما في نقوش المنارات (الآجر والفسيفساء) وحتى العناصر المستوردة تتقارب من الفن الموحدي في النحت والتزيين.

وبعد سقوط طليطلة وقرطبة وبلنسية وأشبيلية أصبحت غرناطة حاضرة لأعظم مملكة إسلامية في أسبانيا والتفت حول بلاط محمد بن الأحمر أبرز عناصر(١٧) المعرفة والثروة والفن والصناعة (غراسات بلنسية ومصانع مرسيةللأوانى المذهبة والأسلحة والمرصعات) ولا توجد الآن في غرناطة أية مؤسسة مهمة أقدم من قصر الحمراء، باستثناء حماماتها التي يرجع عهدها إلى العصر العربي الأول؛ فبعد ما احتل أمير قشتالة أشبيلية شرع ابن الأحمر في بناء **(قلعة الحمراء)** وتحدث الادريسي عن الحرف الصناعية فذكر (في الجزء المقتبس من النزهة طبعة ليدن ٢٠٨)

أن مدينة المرية مثلاً كان بها ٨٠٠ طرّاز يقومون بعمل الحلل والديباج والستور المكللة والخمر وصنوف الحرير وصنوف آلات النحاس والحديد، وليس في بلاد الأندلس أحضر من أهلها نقدًا ولا أوسع أحوالاً؛ فيها ٩٧٠ فندقًا وفي شاطبة (ص١٩٢) تصنع ثياب بيض من أبدع الثياب عتاقة ورقة حتى لا يفرق بينها وبين الكاغد في الرقة والبياض. ثم واصل محمد الثاني بناء الحصون والقصور ثم أسس ولده عبد الله جامعًا فخمًا رائق الهندام مزدانًا بالفسيفساء المنمقة، ومسندًا بأعمدة رائعة برءوسها وقواعدها المفضضة ثم اكتملت بهجة الحمراء أيام الغني بالله لا سيما في ساحة الأسود وردهة السفراء(١٨)

وفي عهد أخيه أبي الحجاج انتظمت آخر النقوش والنحوت ونافس الاثرياء بدائع الحمراء بقصورهم الفاخرة ومبانيهم المنتشرة في سهول غرناطة وما زالت (قيسارية) المدينة إلى الآن شبيهة بقيساريات فاس.

وتعتبر ساحة الأسود وردهات الأختين وبنى سراج من أروع ما حفظه الحدثان في الحمراء وتقوم وسط الساحة فسقية تتفتح في دائرتها اثنا عشر أسدا، أهم وأكمل نموذج للنقش العربي في الأندلس .

باحة الآس وتبدو فيها البركة المائية
أشجار الآس بالرواق الجنوبي بقصر الحمراء

الهوامش

(١) **الفن الأسباني الموريسكي** — هنري طيراس — باريس — المجلد الخامس والعشرون من نشرات معهد الدروس العليا — المقدمة.

(٢) **المغرب** جـ ٢ ص ٣٤١.

(٣) استعمل الأمير بعض مواد المحراب القديم من أربع أسطوانات اثارت بعد قرنين اعجاب الشريف الأدريسي (المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مقتبسين من نزهة المثاق طبعة ليد عام١٨٩٢ م ص ٢١٠).

(٤) كتاب المؤرخ الأسباني موراليس حول تاريخ أسبانيا.

(٥) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى — بيروت عام ١٩٥٠ جـ ٢ ص ٣٥٤.

(٦) الهندسة المعارية عند العرب والمغاربة في أسبانية وصقلية وبلاد البربر بقلم جيرول دوفرانجي باريس عام ١٨٤١ ص ٤٩.

(٧) كان للصومعة التي جددها عبد الرحمن الناصر عام ٣٢٠ هـ مطلعان فصل بينهما البناء فلا يلتقي الراقون فيها إلا بأعلاها (النفح جـ ١ ص ٣٦٩ عن ابن بشكوال).

(٨) ذكر المقري أن دور قرطبة وارباضها بلغت أيام ابن أبي عامر ١٣٠٧٧ هـ دارا للرعية و٦٠٣٠٠ دار للاكابر و٨٠٤٥٥ حانوتًا (نفح الطيب جـ ١ ص ٣٥٦).

(٩) كتاب الفن الأسباني المغربي — باريس ١٩٣٢ ص ٩٦.

(١٠) ص ١١٠.

(١١) ص ١٤١.

(١٢) طيراس — الفن الأسباني المغربي ص ١٧٣.

(١٣) طيراس ص ١٩٧ (في عهد ابي جعفر المقتدر ص ٢٠٢).

(١٤) طيراس ص ٢٨٠.

(١٥) قوى استعمال الآجر في المساجد والقصور باستثناء جامع حسان حيث تكثر السواري الحجرية وكذلك في تلمسان أيام بني مرين.

(١٦) وقبل المدحلون وهم المسلمون فن لكم الافرنج عند المغاربة (عن ابن فضل الله العمرى) المكتبة الصقلية ص ١٥٠.

(١٧) ردهة السفراء في أشبيلية لاتحاذي الحمراء في روعتها ولكنها مع ذلك من أجمل ما خلفه الفن الموريسكي.

(١٨) (٢) شيدها أبو الحجاج عام ٧٤٩ هـ حسب التاريخ المسجل في باب الشريعة.

(١٩) الهندسة المعارية عند العرب والمغاربة — جيرول دوفرانجى طبعة ١٨٤١ ص ١٥٣ راجع في قسمه الأخير نماذج رائعة من الكتابات المعارية مع صور خلابة تمثل بدائع النقش في قصور غرناطة ألوانها الحقيقية.

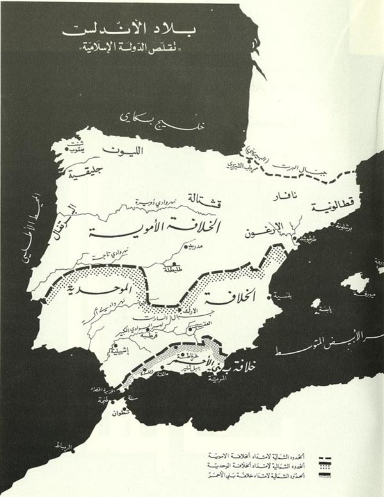
بلاد الأندلس
«تقلص الدولة الإسلامية»
خليج بسكاي
شنت يعقوب
الليون
جليقية
المحيط الأطلسي
البرتغال
نهر وادي دُويرة
قشتالة
نافار
جبال البرت (البيرنيي)
دروب الشيزري
قطالونية
برشلونة
طرطوشة
الأرغون
الخلافة الأموية
مدريد
نهر وادي تاجة
طليطلة
الموحدية
الخلافة
بلنسية
ميورقة
يابسة
نهر وادي آنة
الأرك
جبال الشارات
العقاب
نهر الوادي الكبير
قرطبة
إشبيلية
غرناطة
الأحمر
خلافة بني الأحمر
جبل شلير
مالقة
رندة
المرية
البحر الأبيض المتوسط
الجزيرة الخضراء
سبتة
طنجة
تطوان
الرباط
الحدود الشمالية لامتداد الخلافة الاموية
الحدود الشمالية لامتداد الخلافة الموحدية
الحدود الشمالية لامتداد خلافة بني الأحمر